



عضو أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا بالقاهرة

قضية للمناقشة:

نهاية التاريخ

**الأستاذ دكتور
عماد الدين خليل
جامعة اليرموك - إربد**

نهاية التاريخ

بقلم أ.د/ عماد الدين خليل

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة اليرموك - الأردن

تسعى نظرية نهاية التاريخ - فيما تسعى إلى إلغاء البعد التاريخي ووضع الأمم والجماعات كافة، عراة، قبالة الصنمية الإقتصادية التي تنزع الى تسوية الجميع إزاء مطالبها ، ولكنها - من وراء هذا - تزيد أغنياء العالم وطواغيته غنى وجبروتاً، وفقراءه ومستضعفيه فقراً واستبعاداً.

إنها - بشكل من الأشكال - مناورة فكرية تمنح خلفيات تنظيرية لممارسات تتجاوز - ابتداءً منظومة القيم الخلقية، وثوابت العقائد والأديان والمطالب الأساسية للإنسان، ومن وراء هذه المناورة تكمن الخبرة الإستعمارية والرأسمالية .

إن إلغاء الذاكرة التاريخية وتحكيم الصنمية الإقتصادية المتسلحة بكل قوى العلم والتكنولوجيا والتفوق العسكري،، وحتى السياسي للغرب، لن يجعل الفقير غنياً ، وينزل بالأغنياء لكي يقاربوا الفقراء ، بل ستجعلنا ، وكل المستضعفين في الأرض : ينسلخون عن تاريخهم ويفقدون تميزهم ويزدادون التصاقاً بالقوة المتحكمة في آليات الإقتصاد العالمي.

والحق إن الصنمية الإقتصادية ليست إلا جديداً تفرزه معطيات عصر الشبئية والتكاثر والنمو الأسطوري في تقنيات الإنتاج . إنه قديم قدم الإنسان نفسه رغم أن تغييراً كبيراً لحق هذا الصنم فإتقلت - وهو يتضخم - لكي يتحكم بكل شئ في هذا العالم، وأصبحت محاولة السيطرة عليه مستحيلة .

والذي يحدث الآن محاولة جديدة لتغطية الصنمية برداء جميل من التنظير ، تجيء على يد مفكر أمريكي يدعى (فرنسيس فوكوياما) باسم (نهاية التاريخ)،

وقبلها بأكثر من قرن ، وضعت المحاولة على يد مؤسسي الماركسية الأوائل : (ماركس) و (انغلز) و بزاوية مضادة تماما تبلغ مائة وثمانين درجة.

من أقصى اليسار الى أقصى اليمين ، والنبض الديني الذي يتعبد للاقتصاد ويتخذة إلهها، هو نفسه هنا وهناك فرعان لحضارة مادية واحدة ، كما يقول (جيوروجيو) في (الساعة الخمسة والعشرون).

ولقد سقطت التجربة الأولى بعد قرن ونصف من محاولات التجربة والخطأ، أما نظرية (نهاية التاريخ) فسوف تفترس - بالتأكيد- زمنا آخر من عمر الشعوب ، قبل أن ينكشف زيفها وضلالها .

إن تجريد العالم من بطائنه الروحية، والوجود من تجذره في الغيب ، ومنح السلطة المطلقة للاقتصاد ، سوف يميل بالميزان للمرة العشرين أو الخمسين في تاريخ الانسان الذي سيكون الخاسر .

ولقد أدرك هذا العديد من مفكري الغرب وفلاسفته وباحثيه:ليوبولد فايس(محمد أسد) - مثلا- يؤكد على أن عصرنا هذا " بحاجة الى إيمان يجعلنا نفهم بطلان الرقي المادي من أجل الرقي نفسه، ومع ذلك يعطي الحياة الدنيا حقها. ايمان يبين لنا كيف نقيم توازنا بين حاجتنا الروحية والجسدية ، وبذلك ينقذ من الهلاك الذي نندفع اليه برعونة وتهور".

جورج سارتون ، الذي غرق في تاريخ العلوم عشرات السنين يحكم على "التقدم المادي الخالص" بأنه أمر " مدمر" وأنه " ليس تقدماً على الإطلاق بل تأخر أساسي ذلك " أن التقدم المتضمن لا يمكن أن ينبني على وثنية الآلات ولا على العتلات .. ولكن يجب أن يقوم على الدين .. على محبة الله " .

لقد سيطر على العالم، كما يقول روجيه غارودي في (وعود الاسلام): " نموذج جنوني من النمو لا يمكن أن يعاش" وها هي ذي " الصنمية " كما يسميها : " تفرخ وتتكاثر في مجتمعاتنا صنم النمو.. صنم التقنية العلمي .. صنم قوة الأسلحة والجيوش بمحظوراتها جميعا ومحرماتها ، وبرموزها المقدسة، وبطقوسها" .

ومن وراء هذه الأصنام جميعا يتربح إله المال والاقتصاد والتكاثر بالأشياء على جبل النظام العالمي الجديد ذي القطبية الإحادية ، محاولا أن يهيمن على كل شيء.

إن "تهاية التاريخ" بما تنطوي عليه من إلغاء للتاريخ، إنما هي رؤية خاطئة تتشكل على النقيض من قوانين التاريخ.

أن التغير والاختلاف والتدافع والتنويم هي في صميم النشاط البشري عبر مسيرته التاريخية الطويلة : قال تعالى: (...وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ...) [سورة: البقرة - الآية: ٢٥١] ، وقال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...) [سورة: هود - الآية: ١١٨-١١٩] ، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نَّكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...) [سورة: الحجرات - الآية: ١٣].

إزاء هذا ، فإن أية محاولة لإلغاء الذاكرة التاريخية بحجة قبالة مطالب المال والاقتصاد ، ومقولات التكنولوجيا ، إنما هي قفزة في الفضاء لا تؤمن عواقبها.

لقد جبلت النفس البشرية على الإلتئام للتاريخ، وكل محاولات فك الارتباط بين الإنسان وتاريخه ، باءت بالفشل، وبقي العمق الزمني الذي ينطوي على الخصائص والمقومات ، ماضياً لكي يعمل عمله في صميم الممارسات والخبرات .